

الجزائر في الشعر العُماني الحديث المضمون والأداء

أ.د. حواس بري
جامعة الجزائر2--

تتناول الدراسة الشعراء العُمانيين الذين اهتموا بالجزائر، وعاشوا معها بوجدانهم وبعطائهم، تعبيراً عن العلاقة الوطيدة التي تجمع بين البلدين الشقيقين .

قسم الباحث الدراسة إلى محاور ثلاثة :

أما المحور الأول فهو المحور الثقافي، ويحلّيه الدور الذي قام به العلامة القطب ، محمد بن يوسف إطفيش أحسن قيام. واعتماداً عليه نجد أبا مسلم الرواحي يرثيه يوم وفاته رثاء بيّن فيه قيمة الرجل ومكانته. ولما كان لمعهد الحياة دوره الثقافي والديني، وما يزال معلّماً من معالم ذلك التواصل الثقافي. وجدنا الشاعر العُماني يقف وقفة تلائم هذا الصرح الحضاري ، ويصفه الوصف الدال على الأهمية التي يحضى بها في نفوس العُمانيين.

أما المحور الثاني فتُمثّله الثورة الجزائرية وتعاطف الشعب العُماني معها، حيث كان الشعراء رُسلَ ذلك الإحساس النبيل ، والعواطف التي تقطر مَحَبَّةً لهذا الشعب الذي أعاد سيادته على أرضه، وكان رمزاً لتحدي الشعب المكافح لأعتى استعمار عرفته الإنسانية .

أما المحور الثالث فيمثلته الشاعر الدبلوماسي ودوره في تنمية العلاقات العمانية الجزائرية بجميع جوانبها: الثقافية، والاقتصادية والقضايا ذات الاهتمام المشترك.

المحور الثقافي:

وهذا المحور - كما جلاه الشاعر العماني- يمثله علماء المذهب الإباضي في الجزائر، ويتجلى خاصة في معهد الحياة بالقرارة؛ بوصفه مَجْمَعاً علمياً وصرحاً ثقافياً ، وقلعة من قلاع الجزائر المجاهدة. وفي الصفحات الآتية نقف عند هذين المبحثين اللذين سبق ذكرهما بالعرض والدراسة.

أما العلماء فشيخهم العلامة محمد بن يوسف إطفيش - رحمه الله- فهو الذي عُرف بعلمه وبغزارة إنتاجه ، وفي هذا السياق كتب المفكر الإسلامي الكبير، مالك بن نبي - رحمه الله- في السجل الخاص بمكتبة القطب التي صمّمت تأليفه قال « إذا افتخرت مكتبات العالم بما حَوَتْه من مؤلفات فإنّ مكتبة القطب تفخر بأنّ ثلثها من تأليف صاحبها»⁽¹⁾ كما عُرف عن القطب - رحمه الله- مقاومته الاستدمار الفرنسي، دعا إلى المحافظة على الإسلام والالتفاف حوله في الجزائر؛ كونه صمام الأمان وقارب النجاة، إضافة إلى هذا وذاك فإنّ القطب مرجع المذهب الإباضي في زمانه ، مغرباً ومشرقاً. وقد كان لوفاته أثر عميق على الجزائر والأمة الإسلامية. وقع الخبر على الشاعر العماني ناصر بن سالم الرواحي المكتى بأبي مسلم، كالصاعقة فرثاه بقصيدتين طويلتين⁽²⁾. نقتطف من الأولى ما يخدم الغرض؛ لأنّ المبحث المخصص لا يستوعب قراءة القصيدتين أو عرضهما معاً.

قال أبو مسلم يصور كيف استقبل نبأ وفاة القطب :

لو دافع الصبر حزنا ثم أذهبه لكنت بين رجال الصبر كالجبل
لكن من الخطب حطُّ لويقاومه صبر الجليد انثنى بالدحض والفضل
فقدتُ كُفْل اصْطِبار كان يكفلي في النائبات فخان الآن مكفلي⁽³⁾
فقد تحلّى الشاعر بالصبر وتعوّد عليه لكنه بفقد شيخه تضعّض و
تصدّع؛ لأن للفقيد مكانة عظيمة عند أبي مسلم، لذلك عدّ فقده نكبة
بوصفه هوت عليه، وتشعر من هذا أن الشاعر فقد ركناركيما، كان السند
وبذها به ذهبت آمال فساح، كان الشاعر يرجو أن تتحقق - وما أكثرها -
في زمن كانت الشعوب العربية تحت نير الاستعمار مشرقا ومغربا، لذلك
ناسب الشاعر أن يقول :

يا ناعي الغوث هل لاقيت من خلف ممن نعتت وهل قدرت من مثل
يا ناعيا سيد الأبرار هل تركت بالله فينا المنايا اليوم من بدل
نعتت فردا أم الدنيا بأجمعها إني أحس بدهش شامل جلل
تنعى ابن يوسف فتح السالكين وخت مَ الواصلين مرّي الأنفس الكمل
محمدًا مدد الأمداد روحهم مروع النفس إن يعمل وإن يقل
لغة الكلام تكاد أن تتعطل؛ لأن الشاعر تحت الصدمة ولذلك عمد إلى
خصوبة الألفاظ وجزالة المعاني.

وبعد أن عدّد مناقب الفقيد، عرّج يذكر مؤلفاته - وما أكثرها - فقال:
تلك العلوم التي أوعيت جوهرها قلبا بحب جمال الله في شغل
مازلت تسبح في القرآن ملتقطا درر المعارف لم تضجر ولم تحل
حتى ملأت مراد العقل معرفة ممدودة الفيض حتى لحظة الأجل
وفزت بالسنة الزهراء محتويا على الإشارة والتفصيل والجمل

وجئت بالدين والأحكام مكتشفاً للنقل والعقل كشفاً غير ذي دخل
 مستنبطاً أوجه التأويل راسخةً على النصوص مصونات عن الزلل⁽⁴⁾
 وبه تبيّن أنّ العلامة تمكّن من العلوم الشريعة وكان فيها حُجّة، فضلاً
 عن علوم الوسيلة، كالنحو والصرف والبلاغة. وكان له فيها باع طويل
 بالشرح والتأليف والتعليق ثم انتقل يُبيّن مكانة العلامة بين تلاميذه
 ومُحبّيه من علماء العالم الإسلامي، إلى أنّ دعا له بالرحمة فقال:
 سَقَى الإله ربوع الزّاب * ماطرةً من رحمة الله بالأبكار والأصل
 و باشرتكَ هبات الله دائبةً بعارض من عظيم الفضل مُنهطل⁽⁵⁾
 وبهذا التعبير الصادق اتضح بما لا يدع مجالاً للشك أنّ الرجال لا
 يعرف قدرهم إلا أهلوهم، ولفرط حب الشاعر الشيخ ذاب في تعبيراته
 عنه ، فأذاب الحواجز وطوى المسافات وما أوسعها. وتحدّث عن هذه
 الشخصية العظيمة ليبيدي لك أنه يعيش في الجزائر مع إخوانه بوجدانه؛
 تسعده راحتهم ويشقى لحزبهم. وبه فالشعر وثيقة وشهادة يعتمدها
 المفكرو المؤرّخ حين البحث أو الحديث عن العلاقات الثقافية أو الفكرية
 بين الشعوب، وقد جلاها الشعراء العمانيون - كما سنرى- في الصفحات
 الآتية على نحو أوسع .

هذا عن المبحث الأول من المحور الثقافي. أما المبحث الآخر فيمثله
 معهد الحياة الكائن بمدينة القرارة. ويُعدُّ المعهد معقلاً من معاقل الجزائر
 العلمية. تخرّجت في عرصاته الطاهرة وما تزال كوادراً لا يحصيها العد ،
 ليس في الجزائر وحسب بل في الوطن العربي والعالم الإسلامي. وفي هذا
 المعهد تعلّم الطالب العماني والجزائري جنباً إلى جنب و تخرجا معا.
 وكان لهذا الصرح العلمي دوره وما زال في العلاقات العُمانية الجزائرية ،

في جانبها العلمي والديني ويبدو واضحاً في الزيارات التي يقوم بها الشيوخ وأساتذة من معهد الحياة إلى السلطنة بُغية تعزيز هذه الجوانب باللقاءات التي تجمعهم بعلماء عُمان وطلبة الجامعة⁽⁶⁾ والمعاهد الشرعية وغيرها من المراكز الثقافية والعلمية. وبفضل العلماء الأعلام الكرام الذين قاموا بأعباء التدريس في معهد القضاء الشرعي سابقاً

⁽⁷⁾ وفي عهد عُمان الزاهر، عهد حضرة صاحب الجلالة السلطان قابوس -يحفظه الله ويرعاه- وجدنا عُمان ترد التحية باستقبال الطلبة المتخرجين في معهد الحياة إذ تخصص لهم مقاعد دراسية في مركز السلطان قابوس للثقافة الإسلامية الذي يلعب دوره المتميز في تعزيز هذه العلاقة والعمل على تنميتها والرقى بها إضافة إلى الزيارات التي يقوم بها العلماء من عُمان إلى الجزائر للتشاور والتعاون في الموضوعات ذات العلاقة⁽⁸⁾.

ومادام معهد الحياة يكتسى هذه الأهمية، فيبين عنها الشيخ العلامة سالم بن حمد بن سليمان الحارثي⁽⁹⁾ في أثناء الزيارة التي قام بها إلى معهد الحياة، وهناك التقى بالعلماء المرابطين للتدريس فيه، ففاضت قريحته بقصيدة ألقاها على طلبة وأساتذة المعهد، وخصّ بالذكر الشيخ العلامة إبراهيم بن عمر بيوض -رحمه الله-⁽¹⁰⁾ فقال :

للمعالي فليعلُ من قد تعالي هكذا هكذا وإلا فلا
شرف ينطح النجوم برؤقيهِ وعزيز لزل الأجبالا
أنت يا معهد الحياة سماء أشرقتم شمسها ضحى تتلالي
طبت أصلا فطابت منك فروع عمّت الأفق بهجة وجمالا
عجبا أشرقتم من الغرب شمس فأتتنا للشرق تكسو الجبالا

أعرب الشاعر عن مكانة معهد الحياة و دوره الريادي في نشر الثقافة الإسلامية مشرقا و مغربا وقد وجد الشاعر سالم بن حمد الحارثي في تلك المقولة التي كان يرددّها ابن حزم الظاهري "إنما أنا شمس ولو أشرق من مغربها" ⁽¹¹⁾ وجد فيها ضالته، فاستضافها لوصف معهد الحياة الكائن في الجزائر بيّد أن إشعاعه العلمي يجوب الآفاق:

عجبا أشرق من الغرب شمس فأتتنا للشرق تكسو الجبالا ⁽¹²⁾

وهذا التعبير الجامع يتوافق مع مقولة ابن حزم السالفة الذكر وقيمة هذا المعقل بأعلامه وعلماؤه الكرام؛ لذلك أتى الشاعر يذكر منهم العلامة الشيخ إبراهيم بيوض ويدعوله بمديد العمر للدور الذي كان يقوم به في الحقل العلمي، ويتوزع إلى تدريس طلبة المعهد ودرّوس مخصصة للتفسير و أخرى لعامة الناس قبل صلاة العشاء أو غيره من الأوقات، فضلا عن الإصلاح الاجتماعي الذي تشرف على تسييره هيئة علمية تُعرف بـ العزّابة وهي التي لعبت دورا كبيرا في التكافل الاجتماعي وأعطت و ما تزال الصورة المثلى للدين الإسلامي؛ بوصفه دينا مثاليا في ذاته واقعيا في تطبيقه. قال الشاعر يثني على الشيخ بيوض ومن معه من علماء المعهد:

رَبِّ مَتَّعْ بِيَوْضَ عُمْرًا طَوِيلًا نَتَحَلَّى بِالْقُرْبِ مِنْهُ كَمَا لَا

وَتَقْبَلُ إِخْلَاصَهُ وَعِنَاةَ وَأَنْلِ نَاصِرِيهِ مِنْكَ نَوَالًا

بَارِكْ اللَّهُ فِي حَيَاتِكُمْ وَخُطَاكُمْ وَكَسَاكُمْ مَهَابَةً وَجَلَالًا

وَتَوْلَاكُمْ بَرَكْنَ شَدِيدَ وَحَمَاكُمْ مِنْ كُلِّ سَوْءٍ تَعَالَى ⁽¹³⁾

ولا ينسى الشاعر الوطن الأم لمعهد الحياة، فيقدم له التحايا والتهنئات للدور المتميز في إثراء الثقافة الإسلامية، وخدمة الإسلام، انطلاقا من

معهد الحياة ثم معاهد التعليم الأصلي وملتقيات الفكري الإسلامي؛ حيث كان يُخصّص لكل دورة محورا يدور حوله الملتقى على مدار أسبوع كامل ويحضره علماء متخصصون من جميع بقاع العالم الإسلامي. ولهذا الدور وغيره قال الشاعر:

قصرت عنك يا جزائر مدن وسبقت الأمصار رجالاتها
قل لمن رام شأوه لا تفكر كيف يعلو للعز قوم كسالي⁽¹⁴⁾

وهمات يحصل ذلك! وهكذا تبين بما لا يدع مجالا للشك أنّ الشاعر العماني كان حريصا على إبراز تلك المعالم الثقافية وأعلامها الكرام الذين لعبوا دورا كبيرا، حرصا منهم على نشر الثقافة الإسلامية الصحيحة في البلدين الشقيقين الجزائر وعمان. وعلى اعتبار أنّ المذهب الإباضي قائم مشترك بينهما و تتوسع الدائرة لتشمل اهتمامات البلدين فيما اتصل بالقضايا ذات العلاقات المشتركة الأخرى وهذا ما نلمسه كل يوم للعلاقات المتميزة بين الشقيقتين تسعى إلى تنميتها الوفود التي تتبادل المشورة، فيما يخدم البلدين وعلى جميع الأصعدة. وعلاقات التواصل دائبة لمتابعة القضايا المشتركة، ويشرف على مواصلتها ومتابعتها سفراء البلدين .

المحور الثاني : الثورة الجزائرية والشعراء العمانيون

تظل الثورة الجزائرية بعطائها الزخم وتأثيرها العميق نموذجا لكل حر، ونبراسا لكل من يهوى الحرية ويعشق الحياة في ظل الكرامة. وقد وجد أدباء العرب وغيرهم من أدباء العالم في الثورة الجزائرية الأنموذج الحي للإنسان المنتصر على ذاته، ثم على الذي سلب أرضه واعتدى على مُقَدَّساته. وبقدر ما تعاطفوا معها جعلوها مرجعية لكل من يريد أن يتحرر في العالم. كانت قوية بإيمان شعبيها بمدى عدالتها؛ ومن ثم حركت وجدان

الشاعر وقلم الكاتب ويراغ الدبلوماسية، ففرضت نفسها على أرض الواقع، في الجبال والسهول والصحارى، في المدينة والقرية والحي والحارة. وعلى هذا النحو جاب صوتها آفاق الدنيا بالحنكة الدبلوماسية التي تمتع بها أولئك الدبلوماسيون الذين أوتوا تجربة خصبة في كيفية حوار العدو، وفي تنفيذ ادعاءاته وإقناع المناصر بتلك الأدلة والحيثيات التي لا تقبل التبديل أو التحويل؛ لأنها تصدر عن قناعة راسخة ثابتة، تؤكد عدالة القضية وتقييم الحجة على الظالم المغتصب؛ لأن حججه واهية، ولا أساس لها من صحة بل هي محض افتراء. ومن هنا وقف إلى جانب القضية الجزائرية الشقيق في مشارق الأرض ومغاربها، وتعاطف معها الصديق في جميع أقطار الدنيا...

وكان للكلمة دورها الذي لا يُنسى على مستوى التبليغ والتأثير الإقناع. لخص شاعر الثورة الجزائرية مفدي زكريا - رحمه الله - دور الشاعر، حين يهز النفوس ويدغدغ المشاعر ويدعو للقضية بل يكون «سفيرها بلا أوراق اعتماد» (*) وعن هذا الدور العظيم عنون إحدى قصائده بهذا العنوان: "رسالة الشعر في الدنيا مقدسة".

ومادامت الكلمة المناصرة للثورة التحريرية المظفرة تستمد قدسيتها من قدسية القضية الجزائرية، فكان لها وقعها عند الذين آمنوا بأن الحرية تؤخذ ولا تعطى؛ إذ لم يفرّقوا بين المجاهد بالبندقية أو بالقلم أو بالكلمة. ومن هنا تأتي قضية الالتزام بالدفاع عن الثورة الجزائرية ومؤازرتها من قبل الشعراء العُمانيين الذين ساهموا بشعرهم تحية للشوار الذين واجهوا أعتى استعمار عرفته البشرية وفي تلك المضامين التي جعلوها لمناصرة الجزائر، زاوجوا فيها بين الجلال والجمال.

أما الجلال فيمثّله الثبات والتحدي اللذان تحلى بهما المجاهدون، وهم يواجهون العدو وكلهم عزيمة. وأما الجمال فتجلّيه تلك العواطف الأخوية النبيلة، الدالة على الحب والانتصار للشعب الجزائري في محنته. فهذا الشعور النبيل والإحساس بالمسؤولية التي تملهما الأخوة وتقرهما شريعة الإسلام، لا شك أنها تعمق العلاقة الأخوية.

وقد لمست الجزائري شعبا وقيادة هذا التضامن من قبل الأشقاء

العُمانيين ممّا عزّزها

وثبتّها و سارت قُدُما لتقرير مصيرها لإيمانها بأنها ليست وحدها في الميدان وبتلك المحنة عرفت أن الدم لا يصير ماءً وكان لسان حالها يردد:

أخاك أخاك فإنّ من لا أخأله كساع إلى الهيجا بغير سلاح

وحول هذا التضامن ومعانيه السامية تكون لنا هذه الوقفة مع الشعراء

العُمانيين الذين جعلوا الثورة الجزائرية إحدى مضامينهم الشعرية.

ومن أولئك الشعراء الكرام: الشيخ عبد الله الخليلي - رحمه الله - والشاعر الشيخ سليمان بن خلف الخروصي، والشاعر القاضي الشيخ، حميد الله بن حميد الجامعي المكنّى بأبي سرور.

أما الشاعر الكبير عبد الله الخليلي فنظم قصيدة هنا فيها الشعب الجزائري بمناسبة استعادة حرّيته وقد اختار لها عنوانا يدل على العلاقة الوطيدة بين الشعبين العُماني والجزائري (إلى إخواننا في الجزائر). وليس بدعا أن يتفاعل الشاعر بهذه المناسبة، وينظم هذه القصيدة التي أقرّ فيها أن النصر على الأعداء لم يأت دون مقابل، بل تحقق بالجماع وقد جعلت جسورا وبالدماء وكانت معبرا لساحات الحرية والاستقلال، لذلك مَهَّد الشاعر بالحديث عن الثمن قبل التهنئة بيوم النصر فقال:

يا حادي العيس هُنْتُتَ السرى فاحمد صباح العزواستجِله
 أصبح بأفياء بني عمنا حيث حُسام الموت في نصله
 حيث دم النجدة تجري دما من مَقْتَل الغاصب في تلّه
 حيث حسامُ الشم من قلبه أجرى ولو كان على قتله⁽¹⁵⁾
 وبعد أن قدّم أسباب النصر ومسوّغاته ، وقد مثّلتها الأبيات السابقة
 وأخرى تلتها . شرع يُرِنِّي الشعب الجزائري بنصره الذي افتكّه من المستدمر
 الفرنسي فقال:

جزائرالنجدة هذي العلى جاءتك كالأشقر في شكله
 جاءتك والأيام في غيظها كموقد النار على جزله
 تنساب في استعمار هامية تدمدم الشعب على أهله
 لكنه شعب أبيُّ أبي أن يبرد الحوض لمحتله
 كالليث في غابته حاذر أن يصل الضرالى شبله
 يفتّر للغاصب عن مُرهف يقذف بالحق على بطله
 لله منه حججا خاضها ثمانيا لم يغف عن دخله⁽¹⁶⁾
 هكذا شارك الخليلي الشعب الجزائري فرحة استقلاله وعرف أنّ
 الحرب التي خاضها مع العدو الغاشم دامت ثماني سنين أذاق بها الشعب
 المجاهد العدو مرارة الهزيمة . اعتمد الشاعر في الإعراب عن ذلك بالتكثيف
 اللغوي وتوظيف الطبيعة المتحركة مُمَثَّلة في حيواناتها المفترسة وزواحفها
 الماكرة . وثمّن الشاعر الطبيعة بوصفها صورا معبّرة وأحسن توظيفها .
 أما الشاعر الشيخ ، سليمان بن خلف الخروصي ، فهنأ الشعب
 الجزائري يوم استقلاله كذلك . ورأى استدمار فرنسا الجزائر كان عنوة
 لكن الشعب الجزائري لم يقف مكتوف الأيدي بل ذبّ عن وطنه ودافع

عن بيضة الإسلام فيه؛ لأنّ الحرب الدائرة بين الجزائر وفرنسا أيّامئذ كانت بين الصليب و الهلال. ويرى الشاعر أنّ للجزائر مجدا واسعا هو الذي حركها فرفضت المهانة ، ودافعت عن الوطن المفقّد، والمجد الذي بناه الآباء عبر تاريخ الجزائر الحافل بالبطولات. و عن هذه المعاني قال الشاعر الخروصي:

هوالمجد حيث الجد حيث العزائم وحيث المذاكي والقنا والصوارم
هوالمجد حيث الطائرات أمامها قنابل فيها الموت أسودُ قاتم
هوالمجد حيث المدفع الضخم إن رمى أزال الرواسي فهو للشم هادم
هوالمجد حيث السيف يلمع ضاحكا تسيل دما منه الرُّبى والمعالم
هوالمجد حيث الحرب يحيي عرينها ليوث مقاديم كماء ضراغم
كشعب أبي في الجزائر قد غدا يناضل حقا والشهود العوالم
اتكأ على كلمة المجد يرددها ؛ كونها المنطلق . والمحافضة عليها هي
الهدف ، ثم جاء بحيثُ الظرفيةُ يكررها بغية تعريف المجد بأنه ... حيث ...
ليذلك أنّ المجد المتحدثُ عنه لم يُصنَع من فراغ بل تكوّن وتحقق حيث
العزائم، والقنا، والصوارم. واستمر على هذا الأسلوب يذكّر المجد ويربطه
بأسبابه فتأمله يقول :

هوالمجد حيث المدفع الضخم إن رمى أزال الرواسي فهو للشم هادم
هوالمجد حيث السيف يلمع ضاحكا تسيل دما منه الرُّبى والمعالم
إنّ المجد برأي الشاعر لا يُحافظ عليه إلا بالمدفع، حين يُحسن
استعماله، فإنّه إذّ ذلك تُدكُّ به الجبال الرواسي وتهدم القلاع المُحصّنة.
و إذا كان هذا تأثيره على مستوى الجماد الأنموذج (17) . فإنّ ما بعد هذا
التأثير متروك للعدو أن يتحدث عنه. وللأخ والصدیق أن يبارك ويثني ...

ثم ساق الشاعر صورة النصر تتحقق بالسيف اللامع الضاحك. وحرّياً به أن يزهو ويضحك، وجدير به ذلك، مادام في أياد طاهرة كريمة. تلك هي الصورة الجميلة الوديدة لهذه الآلة لكن لها وجه مُفزعٌ مخيفٌ يتجلى في قول الشاعر سليمان بن خلف الخروصي: تسيل دما منه الربى والمعالم وهنا ، من الملائم أن نشير إلى الاستعارة و علاقتها بالنظم ، ويبدو ذلك في التشريع بمستوييه اللغوي والأسلوبي. أما اللغوي فقد استعار الشاعر فعل سال للروابي والعوالم. وهو مخصص للموائع والسوائل والفعل من حيث مؤداه اللغوي لازم لكن الشاعر عداه (ب) من (التي جاءت هنا بمعنى باء السببية. وبه أعطى التركيب دلالة أسلوبية مفادها أنّ السيف أدمى الجماد بعلاقة المحلية وهو أقوى في الأداء التعبيري، فضلا على أن البيت تَضَمَّنَ ما يسمى بالثنائية الضدية⁽¹⁸⁾ ممثلة في التعبير المجازي الوارد في أسلوب التشبيه الضمني، فإذا أنعمت النظر فيه وجدته لامعا يدخل السرور على النفس لكن إذا استعملته للقطع والبتروجدته حادا.

وفي النص أبكى وأضحك، في أن ، وتلك دلالة على أنّ العبرة ليست بالسلاح بل بحسن استعماله. وفي هذا المعنى يقول المتنبي:

إنّ السلاح جميع الناس تحمله وليس كل ذوات المخلب السبّع

ثم جاء الشاعر إلى البيت الموالي وعمد إلى التكتيف اللغوي حين بيّن أنّ المجد والحرب متلازمان فقال:

هو المجد حيث الحرب يحمي عريتها ليوث مقاديم كماء ضراغم

أبان أنّ الشعب الجزائري كان في مستوى التحدي ، وصار بذلك الشعب كله أسودا ضياغمَ ضراغمَ ؛ لأنّ افتكالك النصر - في مثل هذه المواقف - لا يكون حليفاً إلا للقادرين عليه . وأعلامهم في الدفاع والهجوم

والكر والفر الأسود وكذلك كان الشعب الجزائري. واستأنف الشاعر يعدد مناقب الشعب الجزائري المجاهد ، إلى أن انتهى يهنئه بهذه المناسبة الغالية فقال:

فله يا أهل الجزائر أنتم أسود صناديد حماة قشاعم
 رقوتم على هام السماك بجدكم فجاءتكم هذي العلى والمكارم
 وقد نلت كل المرام بعزمكم على قدر أهل العزم تأتي العزائم
 أهنيك يا شعب البطولة والعلى فقد نلت ما أمّلت والعرض سالم
 إلى أن يقول:

إليكم يا بني العرباء مني تحية وتهنئة جادت بما الحب كاتم
 لعلني أؤدي بعض واجب حقكم وخير فعال المخلصين الخواتم⁽¹⁹⁾

هكذا شارك الشاعر سليمان الخروصي الشعب الجزائري فرحة استقلاله. ولا يفوت أن نشير إلى أنّ الشاعر هزّه الحدث وحركه من أعماقه. ووجد في قصيدة المتنبّي التي مطلعها: على قدر أهل العزم تأتي العزائم – متنفساً لتدفقه الشعري

فبنى على منوالها، وكان بذلك مشدوها بالحدث ومشدوداً إلى القصيدة التي عارضها. ومهما يكن فإن الشاعر – وإن تأثر بالمتنبّي – استطاع أن يحافظ على خصوصياته التي وقفنا على بعض معالمها. كما لا يفوتنا أن نشير إلى أن بعض أبيات القصيدة طغت عليها الخطابة والمباشرة. وهذا حال شعر الثورات يهتم بتسجيل الحدث و مساندة الوقائع ومتابعتها، وليس يُعنى بالبناء الفني الذي يحتاج فيه الشاعر إلى وقت كي يراجع ويجوّد ما نظمه. وشعر الثورات بعامة تلامسه الخطابة والمباشرة. غير أننا نجد بعضهم يتنزّه عن الصفتين السابقتين، ويصوغ شعره جامعاً بين صياغة العبارة وجودة التركيب.

أما الشاعر القاضي أبوسرور⁽²⁰⁾، فقد عَشَعَشَتِ الثورة الجزائرية في عقله وقلبه مما حدا به أن يتابعها ويتلقف أخبارها في الصحافة المكتوبة والمسموعة وظل على تلك الوتيرة حتى جاء يوم النصر فاستمع إلى المذيع يبشر بانتصار الجزائر على العدو وإعادة استقلاله، سمع هذا النبأ السار - وهو يجني الرطب من على نخلة، فكتب قصيدة "مليون النصر" على كلتا يديه، لما لم يجد قرطاسا. ب وفيها يَبَيِّنُ أَنَّ النصر لم يُقَدِّمْ هدية، بل تحقق بعد جهد مضمّن وأرواح ودماء قدمت جميعها عربونا لهذا الوطن الغالي، فقال:

المجد يزهو ويزكور ووضه النضر حيث القنابل لا تُبقي و لا تذر
 حيث العزائم أدهى من قنابلها حيث الممات وحيث الورد والصدر
 حيث السياسة شورى بين قادتها إمامهم نور ما جاءت به السور.
 إن الشاعر اختار لهذا المقام الألفاظ الدالة على الجمال، والكلمات المعبرة عن الجلال، وفي تلك المزاوجة دلالة على المعاناة الممزوجة بالأمل المعقود بالنصر أو الشهادة، وفي كل خير، فمن تلك الألفاظ المشحونة بمعنى الجلال: كلمة (المجد) إنها برأي الشاعر - ليست مجردة عن معناها كونها مصحوبة بقرائن تثبت مجد هذا الشعب وعظمته ثم سرعان ما يريك هذه العظمة تتحول إلى الجمال يوم انتصار الجزائر. فقال: "المجد يزهو ويزكور ووضه النضر". في هذا الثوب الذي ترى فيه الجزائر وهي فرحة بيوم عيدها ولكن هذا العيد لم يأت بالخُطب الرنانة والكلام الذي لا يجدي نفعا، بل تحقق بالقنابل التي لا تُبقي ولا تذر. ولا معنى للسلاح من غير رجال آمنوا بعدالة قضيتهم ومن ثم رأى أن عزيمة الرجال الذين أصروا على الاستقلال أشد وطأ من القنابل وأحكم أثرا من استعمال الآلات

الحربية، وأعرب عن ذلك ولخصه في المنهج الذي سار عليه المجاهدون وقد تمثل في إحدى مصادر التشريع الإسلامي، ألا وهو الشورى . ويتأكد نجاح العمل بها عندما اهتدى المجاهدون إلى تطبيقها بوصفها نورا من نور الوحي المنزل على الرسول الأعظم - صلى الله عليه وسلم - .

ويرى أبو السرور أن الشعب الجزائري برمته ولد مجاهدا فحارب العدو المغتصب أينما كان وحيثما وجد على أرض الجزائر، ومن ثم تصور الشاعر هذا الشعب العظيم يعانق نيران العدو ويتلظى سعيها بل جعلها لباسا يتلحفه، فنرى في هذا التعبير الاستعاري الجميل والمعبر عن معنى جليل. فقد وفق الشاعر في التصوير عبره توفيقا جيدا، ثم يعود لتصوير رسالة الجندي الجزائري في المعركة فيقول:

سقوا عدوهم من سيفهم سقرا حربا ضرورا وما أدراك ما سقرا
وصارعوا طائرات الخصم حاضنة شرَّ القنابل يرميمها البطر
فعانقوها وما هانوا وما ضعُفوا وما استكانوا وكانوا الصَّبر فانتصروا⁽²¹⁾
استطاع الشعب الجزائري الباسل أن يلحق الهزيمة بالعدو ويذيقه العذاب الممين وقد أُوعد الله به الكافرين.

إنَّ الشاعر كان متحكما في ناصية اللغة ، انطلاقا من الألفاظ التي يختارها ثم يؤلف بينها فتبدو ملتئمة في سياق النظم معبرة تعبيرا فنيا محكما: فانظره وقد اختار عبارة "سقوا عدوهم سقرا" إنَّ هذه الهزيمة التي أذاقوا مرارتها العدو هي من قبيل ما أُوعد الله به الكافرين في قوله سبحانه "سأصليه سقرا" (المدثر، 26). ولكن الشاعر أفاد من التعبير القرآني، لكنه في الوقت ذاته لم ينف فعل الإرادة البشرية التي تصر على الانتصار. فأبان أنَّ إذاعة العدو تكون من السيف بوصفه أداة من أدوات

الحرب - وكما ترى - فإن (من) البيانية أفادت أنّ السلاح لا معنى له دون جندي جسور . ثم أعقب الجملة الأولى جملة بيانية أخرى ، فقال "حربا ضروسا وما أدراك ما سقر" وبها أبان أن مفعول سقوا: (سقرا) في الجملة الأولى وتأتي الجملة الثانية بيانا للأولى لتُفهِمَنَا أن (سقرا) ليست يوم القيامة التي أوعدها الله بها كل كافر وظالم بل هي "سقر" التي صنعها المجاهدون الجزائريون بالحرب التي خاضوها على العدو - دون هوادهة . وإذا أثنى الله تعالى على جهنم التي أعدها لأهلها، فإن أبا سرور يجد الثناء عينه لجهنم التي أوقد نارها الجنود البواسل . وبه وظف الألفاظ القرآنية لهذا الغرض لفظا ومعنى- كما هو بيّن في قوله تعالى " وما أدراك ما سقر" (المدثر، 27).

ثم ينتقل الشاعر ليبين للمتلقي كيف يتحدى المجاهدون العدو في ساحة الشرف؟ إنهم يعانقون القنابل وما عرف الوهن أو الاستسلام إلى نفوسهم سبيلا وما عرفوا طريقا إلى التقهقر والتناكص، بل كانوا يتقنون أثر العدو ويبحثون عنه لمنازلته في ساحة الشرف .

ونعود لنقف وقفة متأنية حول معانقة المجاهدين النار - كما أبدأها الشاعر. فنقول : إنّ المعانقة -هنا- ليست من قبيل الصورة النمطية، بل هي من قبيل التشريع اللغوي الذي يضيف للتركيب خصوصيته التي تجدها في التمييز؛ إذ المعانقة لا تعدو أن تكون للحظات. بيد أنّ اللباس يلامس الجسد بصورة مستمرة دائمة حال ارتدائه. فدلّ لفظ (لباسا) في سياق النظم وقد ورد (تميزا) أنّ الجزائري الذي آمن بالحرية أملى عليه إيمانه أن يجعل النار لباسه. وكما نجد جمال التعبير يتحقق من وجهة ثانية تمثلها الجملة الحالية قوله (وهي تستعر) و المعنى أنّ مواجهة الجزائري

النار، لم يكن أنيا أولساعة من نهار، بل ظل يتلحفها وهي تشتعل . وهذا يؤكد معنى اضطراد الإصرار و المصابرة على الجهاد و التطلع عبرهما إلى النَّصر. ولذلك فليس عجبا أن يكون الثمن باهظا ويتقدم مليون ونصف المليون من الشهداء، إيماننا منهم بأنّ الجزائر عطشى للدماء؛ فأمطروها دما حتى صارت مخضرة، بعد أن كانت محترقة وصارت طروبا بعد أن كانت مكفهرّة وفي هذه المعاني قال أبو سرور :

لله قوم -على حرب العدا - وُلدوا فعانقوها لباسا وهي تستعر
مليون شهيم من الأبطال قد قُتلوا في نيل حرية حبّذا الوطر
قالوا الجزائر عطشى للدماء شرفا فأمطروها دمًا فاخضرت الجُر

ونلاحظ دقة استعمال الشاعر الألفاظ ونجاحه في نظمها، في السياق الذي ترد فيه - كما في قوله:

لله قوم -على حرب العدا- ولدوا فعانقوها لباسا وهي تستعر⁽²²⁾

إنّ الملاءمة كائنة بين الولادة و المعانقة، و الجملة الاعتراضية -على حرب العدا- تجدها في بداية السياق مشدودة الصلة بالجملة الحالية (وهي تستعر) و أما اختياره لفعل (خالوا) فالفعل في هذا النظم يشرّع له الشاعر معنى جديدا ؛ فلم يعد بمعناه الطبيعي المتعارف عليه وهو (الشك)- بل أعطاه معنى الظن القلبي، وبدا ذلك حين ميّزه بقوله (شرفا) فتأمله (خالوا الجزائر عطشى للدماء شرفا).

ولما كان هذا اعتقادا قلبيا و إيمان عقي و عقيدة ؛ فالنتيجة أن جعل المجاهدون الجزائر ترتوي بدمائهم.

إن اللفظ الاستعاري و التمييز -ههنا - أبديا زهد الجزائريين في الحياة ماداموا يرون الجزائر هي الأمل و الهدف و الغاية المنشودة . و هذا التعبير

هو من قبيل الاقتصاد اللغوي. وإحكامُ النظم ودقته تجدهما من وجهة أخرى ، وهي فاء السببية التي تأتي في هذا السياق لتُبدي النتيجة والمحصلة (فاخضرتَ الجزر). فقد كانت عطشى، فأُمطرت دما. وبذلك استعادت سيادتها وافتكتها بجدارة وصارت الجزائر مخضرة . ومن قبلُ كانت أرضا محروقة بفعل العدو، وقد انتهجها سياسة- كما لا يخفى- وبالنصر والاستقلال أصبحت مملوءة بالحركة حافلة بكل ما هو جميل. ثم يعرج الشاعر ليبين أنّ الذين أوتوا هذا لإصرار كله، وتحلوا بتلك الصفات السابقة صاروا همُ الصبر. وماداموا على تلك الأخلاق العالية والإقدام العجيب، فلا شك أنّ الله ناصرهم، ثم بين أبو سرور أنّ مَنْ يَمُت في سبيل الله ، أحرى أن يُعزّز ويُكْرَم ويكون نموذجا يُحتذى في صناعة المجد ، وفي تحقيق كل ما هو سامٍ وشريف .

ثم يلتفت إلى خطاب فرنسا الظالمة الطاغية المستبدّة. والخطاب ههنا يرد في أسلوب إنشائي فيقول:

يا غاشيا أرضنا حربا ومغتصبا ظلما ألم تُغنك الآياتُ والنذر
أما قرأتَ عن الماضي صحائفنا بأبها الموتُ لا بردٌ ولا خور⁽²³⁾

نادى الشاعر العدو الغاشم وكثف الألفاظ الدالة عليه فقال :

(يا غاشيا أرضنا حربا ومُغتصبا ظلما). وهذه الطرائق مجتمعة مارسها الفرنسيون لإذلال الشعب الجزائري؛ فقد اغتصبوا الأرض ظلما وعلوا وزرعوا أبناءهم فيها بالحرب ، واغتصاب الأملاك، وبمحاولة ثني الشعب عن الالتفاف حول ثورته بكل الطرق. ولكن هيهات تُجدي وسائلهم نفعاً ، أمام شعب صمّم على الحياة بعزة أو الموت بكرامة. ولذلك سأل الشاعر العدو محتقرا (ألم تُغنك الآياتُ والنذر؟).

ثم ينتقل إلى استدعاء الماضي: أعلاما ومواقف وتاريخا فيقول :
 أما قرأت عن الماضي صحائفنا بأنّها الموتُ لا بزد و لا حور
 نحن الألى دَوَّخوا الدنيا كما هويت رماحنا لا كما شاءت لنا عصر
 الدُّ شيءٍ على الأحرار موتهم في عزِّهم نطق الرصاصُ لا الوترُ⁽²⁴⁾
 ذكّر الشاعر فرنسا بسنام الإسلام وذروته وهو الذي به تحقق عز
 الإسلام والمسلمين؛ إنه الجهاد في سبيل العقيدة والوطن. لخص أبوسرور
 ذلك كله بأنّ المسلمين كتبوا صفحات تاريخهم بالجهاد في سبيل إعلاء كلمة
 الحق ولم يسجلوها بالخضوع والخنوع للأعداء! وهم من سلالة أصحاب
 بدر، أعطوا درسا حيّروا فيه الورى بالطريقة التي اختاروها وبالمنهج الذي
 اخترعوه وهو إعلان الحرب على العدو بلا هوادة إنهم وجدوا في الموت لذة
 لا تُضاهى، فعشقوا الشهادة واتخذوا من رنة البارود وزنا لرقصتهم. وتحية
 لتلك العزة وذلك الشموخ دَوَّى الصاروخ عاليا وسكت الوتر!؟

وبعد هذا الوصف الجامع لما أبداه الشعب الجزائري من تحدٍ لفرنسا
 عاد الشاعر يطلب إليها أن ترد على حُججه التي قدمها -إذا كان في مُكنتها أن
 تجيب!- ثم يعفيها من الإجابة ساخرا (وما جواب قتيل ما له أثر!) ويقرر
 الشاعر حقيقة مفادها: إنّ الذلّ لم يُخلَق للأحرار لكنّه خليق بالظالمين
 وحرّيّ بالمعتدين. ثم يخبر الذين ظلموا: إمّا أن يفارقوا الدنيا بضرية لازب
 .ومن شاء أن يعيش منهم، فليعلم أنّ البطر والادّعاء لا ينفعان أمام المدفع
 والبنديقية. وفي هذه المعاني مجتمعة قال أبوسرور:

فيا فرنسا أجيبى ما أقول به وما جواب قتيل ما له أثر
 لم يخلق الذل للأحرار في زمن لكن لمن ظلموا الأحرار أوبطروا
 فمن يشأ فارق الدنيا بمدفعنا ومن يشأ العيش لم يطمح به البطر

وينهي الشاعر قصيدته بأن تحيا الجزائر عزيزة سعيدة. وكم كان يرجو أن لو كان بمعية إخوانه والحرب حامية الوطيس فقال:

تحى الجزائر في عزّ وفي شرف سعيدةً وعدو الله مندرح
يا ليتني معكم والحرب كاشرة عن ناهيها وبكفي الصارم الذكر

وهكذا اتضحت معالم الحب ودلائل التقدير والإجلال للشعب الجزائري من قبل هذا الشاعر، وقد استطاع بحسه المرهف وأدبه الفياض أن يحقق جمال المعنى وجلاله في الإطار التراثي للقصيدة العربية، التي تؤكد عمق التجربة والتحكم في اللغة. والموهبة هي الكفيلة بتحقيق هذا النجاح. وفي كل وقت وفي كل حين.

المحور الثالث: الشاعر الدبلوماسي

وتأتي الدبلوماسية لتلعب دورها في التعبير عن التكامل الوجداني بين الشعوب العربية، انطلاقاً من أنّ العروبة ثقافة - كما يقول الدكتور زكي نجيب محمود - وهنا أقف وقفة احترام وتقدير للدبلوماسي المحنك والأديب الشاعر، سعادة السفير الأسبق لسلطنة عُمان في الجزائر، الأستاذ هلال السيّابي⁽²⁵⁾، وقد مثّل السلطنة في الجزائر أحسن تمثيل ووجدنا آثار ذلك التمثيل في الثناء الذي كان يقرؤه الزائر لسفارة السلطنة من المثقفين والشعراء والكتاب وغيرهم. بل وجدت من حدثني وكان يكرر الثناء ولا يمل؛ كون الثناء في حق السفير الأنموذج حلوا المذاق في فم مرده. سمعت عن الرجل، لكن حينما قرأت قصيدته «وداع الجزائر» وجدت ما تلخص ما أودّ أن أشرك القارئ وأطلع عليه؛ لذلك سأقف عندها الوقفة القمينة بها.

قسّم الشاعر هلال السيّابي قصيدته السالفة الذكر إلى أربعة لوحات، تناول في اللوحة الأولى تعلّقه بالجزائر التي أسرته بجمالها الأخاذ. نَظَم ذلك في أسلوب تركيبى بديع، كما تحدث عن ذكرياته التي عاشها في وادي ميزاب؛ بوصفه معلما من معالم النهضة الثقافية، ومَعقلا من معاقل الثورة الجزائرية وفي معهد الحياة « تخرجت كوادر جزائرية وكوادر عُمانية ومن هنا كان اللقاء.

أما اللوحة الثانية، فقد ظل الشاعر مُعلّقا قلبه بالجزائر، ولا يحسب الرحيل عنها إلى عُمان رحلة بلا عودة، بل يرى وداعه إياها ضربا من العيب؛ كونه يتنقل كالطفل بين أمهاته، يودّع هاته لتستقبله تلك، في الوطن العربي الكبير.

أما اللوحة الثالثة، فيتحدث فيها مرة أخرى عن جمال الجزائر وقد شُغِف بها حبا، ثم يعرّج إلى الثورة الجزائرية يذكرها بوصفها المرجع الذي يعود إليه، مَنْ شاء أن يتحرّر من الغُزاة؛ كونها الملمم، وتاريخها دليل يعود إليه كل من يسعى إلى الحرية والانعقاد.

أما اللوحة الرابعة، فضمّنها تجربته مع المحنة التي عاشتها الجزائر في العشرية السوداء -لا أعادها الله- وابتلى الشاعر البلاء الحسن، ومع ذلك كان بلبلا وديعا وطيرا خفيفا، يتنقل بين أغصان الشجرة الوارفة الظلال، وفي آن معا، كان الصقر الذي يُطلّب للمهام الصعبة فيجيب بأنه لها والدبلوماسي المحتك؛ حين يُسأل عن المحنة فيجيب بأنّها المنحة، وهكذا الرجال.

هذا مُلخص ما ورد في القصيدة وقد تضمّنت تجربة جديرة بالتحية والتقدير، وأية شاهدة على الدبلوماسي الواعي والشاعر المبدع.

ومن حق الشاعر على القارئ أن يضيف إلى نصه ما ينبغي أن يضاف إليه؛ ليس على سبيل الإضافة الاعتبائية، بل يلجُ النص ليقف على معالم الجمال فيه ، ثم يقرأه قراءة تنطلق من اللغة لتعود إليها . وذلك ما سنحاول القيام به.

يقول الشاعر هلال السيابي في اللوحة الأولى مخاطبا الجزائر:

بيني وبينك عشق عابق وندي فلست عنك – وإن أرحل- بمبتعد
ولي بواديك أصداء مؤرجة تنساب كالعطربين القلب والكبد
ترف منها غوالي الذكريات فما إلا الروائع تحكي روعة البلد
تكاد تلك السهول تعرفني لحنا يمسُّ عذارى الحي بالغيد
أهفو إلى ظلها الممدود منشرحا فيرجع القلب مزهواً من المدد
فها هنا وهنا كانت مجالسنا مع الخمائيل بين الزهر والبرد
وها هنا وقفة كانت لمركبنا يشدها المجد مزهوا يدا بيد⁽²⁶⁾

استهل الشاعر بما يؤكد تلك العلاقة الوطيدة ، والشيجة الحميمية بينه وبين الجزائر. ولم يعتمد التعبير الخطابي الذي يبدو في غاية الضحالة وضيق الأفق، بل وظف الكلمات الدالة على المحبة ومنها: (العشق، الندي، العابق).

وإذا كان العشق-على هذا النحو- فإنّ البينوننة على ما بين الشاعر ومعشوقته تظل وشائجها مترابطة لا يعترها الوهن والضعف. لذلك لم يعتمد الشاعر الظرف المعلق (بين) بل تخطاه واستعاض عنه بقوله: فلست عنك – وإن أرحل- بمبتعد. فدلّت الجملة الاعتراضية أنّ الشاعر، وإن رجع إلى موطنه الأصلي عُمان ، فقلبه معلق بالجزائر، ويحيا على ذكرياته فيها. وهيمات أن ينساها وقد عشقها وأحبها حبا منقطع القرين أويكاد.

ثم يسوق تجربته ويجعلها في وادي ميزاب، فيذكره بوصفه القاعدة الخلفية للعروبة و الإسلام، ويجد من أهله الدفاء و الحنان والكرم الحاتمي. وتلك صفات جُبلوا عليها وهي فهم ديدن وطبيعة. صاغ الشاعر هذا الانطباع بتلك الأصداء التي تناسب كالعطربين القلب والكبد. وهاك تراه يشرّح للغة على مستوى الوظائف التي أحدثها، فالأصداء- عادة- ما تكون قوية يبُد أنها - ها هنا- على غير طبيعتها (مناسبة) فتحول بها من الارتداد إلى الانسياب تمهيدا للعطر، لا لغيره من السوائل لما له من قيمة ذاتية وأخرى تعبيرية .

وأيّن ينساب هذا العطر للجسم كله؟ لا، بل ينساب بين القلب والكبد. إنّ اختيار الشاعر لهاتين المُضغتين من الجسم اختيار موفق؛ ذلك أنّ القلب مناط نظر الرب سبحانه، ومكْمُنُ العشق السابق الذكر والهَيّام المُورّع بين ثنايا القصيدة. ولا معنى للحب خارج القلب، وفي هذا المعنى يقول الشاعر مصطفى بكر بن رحمون:

والحب إنّ لم يكن في القلب منبعه فهو محض تقليد ومهتان
والشعر إنّ لم يكن في القلب مضجعه فهو محض تقطيع وأوزان⁽²⁷⁾
وأما الكبد فهي المضغّة التي تزود الإنسان بالدم. وبه فهي البنك المَعْوَلُ عليه في الضخ، ولذلك عني الشاعر بهما فجعل العطر ينساب بينهما لما لهما من علاقة تدل على الوفاء وأخرى تضمّن الاستمرار.

وللشاعر في وادي ميزاب ذكريات غالية، وفيه لم تقع عينه إلا على ما يروق من الروائع المحكية والمشاهدة، ثم التي عاينها بنفسه- كما قال- وقد أحبّ الشاعر، هلال السيّابي الوادي وهام بجماله حتى نشأت بينه وبين سهوله المخضرة علاقة وطيدة:

تكاد تلك السهول تعرفني لحننا يمس عذارى الحي بالغيد
أما في اللوحة الثانية فيتساءل الشاعر :

أراحل أنا؟ لا والله لا رحلت روجي وإن جاب في الأفاق بي جسدي
أرض العروبة أرضي أينما ذهبت ركائبي فهي لي كالأُم والولد
فما أعادر في أرضي ولا وطني إلا إلى وطني والله أو بلدي
تساءل الشاعر عن رحلة العودة إلى الوطن الأُم عُمان؟

يستفهم ويجيب أنّ الرحلة وإن كانت، فهي بالجسد لا بالروح؛ حيث
تظل روحه وفيه للجزائر التي قضى فيها سنوات من عمره، كما تظل هذه
الروح وفيه لكل مكان عربي؛ فأرض العروبة داره أينما حل أو ارتحل. فهي
بالنسبة إليه كالأُم والولد يغادر أمه في هذا القطر ليجدها في القطر العربي
الأخر تنتظره بدفئها وعطفها وحنانها.

وهكذا يتأكد لنا أنّ العروبة فعل ثقافي، يمارسه المبدع ويحافظ على
استمراره الدبلوماسي، وقد جمع الشاعر، هلال السيابي بين الوظيفتين
فكان مُثقفًا يشعر بانتمائه ويدرك الدور الذي يجب أن يلعبه في العلاقات
العربية العربية.

أما اللوحة الثالثة، فخصّصها للجزائر وخاطبها لحظة الوداع فقال:
جزائر المجد إن أرحل فما رحلت روجي ولا ملهمات الشعر من كبدي
هذي الفتون الغوالي فيك تسكنني فمن لنفسي بالترحال من خلدي
سحر الطبيعة يغريني بصبوته فكيف بالمجد فؤارا من الأبد
عشقت فيك الرماح السمر مشرعة تردي عن الوطن الميمون كل ردي
عشقت فيك السيوف الزهر لامة والموت يقطربين الدرع والزرذ
أستغفر الله ما كانوا سوى نفر بيض الأسرة والأعراف والصيد
أضواء عقبه ما زالت بأوجههم شهبًا تضيء وخلقا وارف الرشد

خاطب الشاعر الجزائري وعرفها بأثنا المجد؛ كونها صنعتها وعُرفت به حتى صار اسمها مقرونا به، ثم عاد يقرب صفحات الثورة الجزائرية فوجدها مكتوبة بالدماء والأشلاء، فعشق الجمال والجلال معا فقال: أنا إن أرحل جسدا عنك يا جزائر، فستظل روحي تسكن ديارك و ستظلين مصدرا من مصادر إلهامي الشعر؛ لأنه يسكنني كل شيء فيك فاتن وجميل، وأنى للنفس أن تتفصى عن وعائها. وكل شيء منك صار من مكوناتى الذاتية. لذلك فإن الرحلة الجسدية لا معنى لها، مادام القلب مُعلقا بمن تيممه .

عشق البطولة - في تصوّر الشاعر- ليس في السلاح ذاته لكن في حسن توظيفه واستعماله ، وبه عشق الموت وقدّم الجثث والأشلاء دفاعا عن الوطن ؛ لأنها خامات يُنسجُ بها المجدُ وتُبني على هامتها دعائم النصر ودروب الانتصار. يقول:

عشقت فيك الرماح السمر مشرعة تردي عن الوطن الميمون كل ردي
عشقت فيك السيوف الزهر لامعة والموت يقطربين الدرع و الزرد
هكذا بدأ الشاعر قصيدته بالحب الذي يكتنه للجزائر، وأنهما بما يؤكّد أنّ الحب لا يتجزأ ولا يتعدد، كما أنه لا يتأثر بالقوارع والنوازل ولا يعبأ بالزلازل، فكان كروانا صقرا وبُلبلا غضنفرا. دخل المحنة من أجل المعشوقة التي اكتوى بنارها فوجد في ذلك لذة الانتصار عن الذات وعن الآخر. وبه فإنّ الشاعر هلال السيابي كان شاعرا شاهدا، وفنانا مؤرخا للعلاقة الجزائرية العُمانية المتينة والتي لا تزيد الأيام إلا تماسكا وتطورا نحو الأفضل.

ومثلما وقف الشاعر على معالم النصر وأسبابه وقف على الجمال والآيات الدالة عليه فلخصها في أسلوب شاعري بديع ، ثم عاد يحدثك عن

عشق الآخر؛ لأنه لم يعشقه لذاته بل عشق فيه بطولته . وهكذا العربي يحب ولكنه يعشق القوي أو كما يقول الدكتور علي زيعور « إن العربي كالمراة تحب زوجها، لكنها تريده قويا». وكذلك الشاعر مع الفارق يحب من يحقق أمانيه وطموحاته، وكذلك كان المتنبي مع سيف الدولة الحمداني؛ حينما وجده يُحَقِّق انتصاراته على الروم، عكف يمدحه، وجعل شعره سجلا لبطولاته التي كان يحققها على الأعداء، حتى صار وثيقة لا يمكن الاستغناء عنها عند التأريخ لسيرة سيف الدولة.

وهذه لفظة وددت التنبيه إليها كون الشاعر هلال السيabi عاشقا للبطولة مُتَيِّمًا بمن وجده يحققها. وليس ذلك غريبا عليه وهو الشاعر العُماني المُلهِم ، أعطى أباه وأجداده دروسا للغزاة الذي مروا من عُمان، الوطن المفقود. وسجلها التاريخ بأحرف من نور لا ينساه المُعتدي، ومرجعا تستلهم منه الأجيال الدروس لتنتقل منها وهي تساهم في بناء عمان، وفي عهدها الزاهر، عهد حضرة صاحب الجلالة السلطان قابوس المعظم يحفظه الله ويرعاه.

أما بعد فقد تبين من هذه الدراسة أنّ العلاقة العمانية الجزائرية تضرب بجذورها في الأعماق، وقد جلى هذا التقارب حضور الشاعر العُماني في الجزائر، مُهْتَمًّا عاشقا، ومغتمًا منفعلا. واتّضح أنّ الشعر وثيقة من الوثائق التي لا يمكن تجاهلها أو الاستغناء عنها من قبل الباحث الاجتماعي أو المؤرخ والسياسي.

وأجمعت القصائد موضوع الدراسة عن الحب المتبادل بين الشعبين الشقيقين العُماني والجزائري. وقد ترجم هذا الحب، وذلك التعاون الثقافي المثمر وتجلي في تخرج الطلبة العمانيين في معهد الحياة . ويلعب مركز

السلطان قابوس للثقافة الإسلامية) معهد القضاء الشرعي (سابقا الدور نفسه؛ حيث يتخرّج فيه الطلبة الجزائريون. وقد شهد الشعراء جميعهم بالمجد التليد والتاريخ الحافل بالبطولات لجزائر التاريخ والثورة، كما تبين أنّ الشعراء سفراء بلا أوراق اعتماد، وكانوا وما يزالون هم الصوت العربي الداعي إلى الوحدة والتضامن بين الشعوب العربية؛ لأنّ العروبة ثقافة، بل هي الفعل الثقافي الذي مازال يؤكّد هوية العرب وانتماءؤهم .

كما تبين من خلال هذه القراءة، أنّ النص الشعري في صورته التراثية بمُكنته معالجة القضايا التي يتناولها، ولا يضيق بها ذرعا بل تتسع لها آفاقه بمكوّناته التي يقوم عليها. وقد لمسنا هذا الاستيعاب في نصّ أبي سرور، ونص هلال السيّابي مما حدا بنا إلى الوقوف عند كلّ من النصّين وقفة دعت إلها الأدبية التي شاعت معالمها في النصين معا، كما اتضحت مقدرة الشاعرين على التصوير والتشريع في آن وفق رؤية تحدد المعالم الأسلوبية الخاصة لكل منهما .

هوامش ومراجع

- 1- ينظر سجل مكتبة القطب، اطلعت عليه في جوان 1984 ببني يزقن، وقد أسعدني الاستقبال الذي حظيت به من القيمين على المكتبة -يومها- ، وبالمناسبة أدعو بالرحمة لساحب الفضيلة الشيخ صالح بزملال الذي غمرني بعلمه وكرمه ، كما أشكر ابنه الأستاذ أحمد. وقد راعني ما كتبه الأعلام الذين زاروا المكتبة من رؤساء وسفراء عرب وأجانب .
- 2 - ينظر ديوان أبي مسلم ، وزارة التراث القومي والثقافة 1987 من ص 314 إلى 327.
- 3 - ناصر بن سالم عديم الرواحي ، ديوان أبي مسلم ص 316 وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان 1987.
- 4 - ديوان أبي مسلم، ص 320.
- * يشير إلى وادي ميزاب حيث يتركز أبناء المذهب الإباضي الكرام
- 5 - ديوان أبي مسلم، ص 320
- 6 - لقاءات الشيخ ناصر مرموري- رحمه الله- مع طلبة جامعة السلطان قابوس، والزيارات التي كان يقوم بها إلى محافظات السلطنة .
- 7 - للدكتور محمد ناصر حضور متميز في هذا المعقل الثقافي وقد تخرج على يديه طلبة كثيرون في عُمان ، إضافة إلى دوره العلمي الرائد ويتمثل في المؤلفات التي خصصها للمذهب الإباضي وأعلامه فضلا عن مؤلفاته عن شعراء عمان وأدبائها وعلمائها .
- 8 - زيارة العلامة سماحة المفتي العام للسلطنة، حمد بن أحمد الخليلي للجزائر في مناسبات كثيرة . وهو شخصية علمية سامقة ، كان لي شرف لقائه في زيارة لمكتبه في ماي 2013 مع أساتذة من الجامعة الجزائرية، فله الشكر على حسن الاستقبال الذي حظينا به

- 9 - سالم بن حمد بن سليمان الحارثي , يعود نسبه عبر التاريخ إلى الحارث بن عبد الله المطلب الهاشمي القرشي, ولد سنة 1351 هـ / 1933 م في بلدة المضيرب بالمنطقة الشرقية، ينظر ديوان الحارثي ص 3 مطابع النهضة عمان 1995
- 10 - من مقدمة القصيدة بتصرف.
- 11 - دكتور رفعت الشرقاوي، فلسفة الحضارة الإسلامية. مكتبة الشباب ، القاهرة 1984
- 12 - ديوان الحارثي ص 16.
- 13 - ديوان الحارثي ص 16-17
- 14 - ديوان الحارثي ص 16-17
- *- ينظر مفدي زكرياء ديوان اللهب المقدس الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1983
- 15 - الشيخ عبد الله الخليلي، من وحي العبقريّة، ص 275
- 16 - الشيخ عبد الله الخليلي، من وحي العبقريّة، ص 275
- 17 - وقد أمر الله تعالى نبيه موسى عليه السلام أن ينظر إلى الجبل؛ كونه الجماد الأمثل. قال تعالى: "فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكا" (الأعراف، 143)
- 18 - تجد هذا المعنى في قول المتنبي يصف سيف الدولة وهو يتفقد جيشه ميمنة وميسرة وصدر
- ضحوك إلى الأبطال وهو يروّعهم وللسيف حد حين يسطو ورونق.
- 19 - القصيدة مخطوطة و أشار إليها الطالب سعيد بن سليمان العسائي في دراسته, تطور الأبعاد العربية والإسلامية في الشعر العماني الحديث مخطوط رسالة ماجستير - قسم اللغة العربية - جامعة السلطان قابوس 2001.

20 - هو أبو سرور حميد الله بن حميد الجامعي ولد في منتصف العقد السادس من القرن الرابع عشر للهجرة، نشأ بولاية سمائل وتلمذ على كبار أعلامها. بدأ ينظم الشعر في سن مبكرة تكوّن تكويننا علميا رصينا في علوم الشريعة وعلوم اللغة، تولى التدريس ثم القضاء، تنوعت مؤلفاته بين علوم اللغة وعلوم الشريعة فضلا عن نبوغه في نظم الشعر. وافته المنية يوم 21 سبتمبر 2014. بلغنا نبأ وفاته ونحن نراجع البحث قبل إرساله للمجلة. رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

21 - ديوان أبي سرور 6/2

22 - ديوان أبي سرور 2/6 و 7

23 - ديوان أبي سرور 2/6 و 7.

24 - ديوان أبي سرور 2/6 و 7.

25 - هلال بن سالم بن حمود السيابي ولد في مدينة نخل بسلطنة عمان سنة 1947 عمل في التدريس، وتقلد بعد ذلك العديد من المناصب القيادية في الصحافة والإعلام وكان آخرها سفير للسلطنة في الكويت ثم الجزائر فدمشق

26 - موسوعة جائزة عبد العزيز البابطين للإبداع الشعري، مختارات من الشعر العربي الحديث في الخليج والجزيرة العربية، المجلد الخامس، الأمانة العامة للجائزة- الكويت 1996 ص 507 – 508

27 - مصطفى بكر بن رحمون ، ديوان مصطفى بكر بن رحمون ،

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1982